ملامح الأحوال الاجتماعية في دولة المماليك البحرية (٦٤٧هـ/١٢٥٠م)

الدكتور / أحمد حسن عمر شلوبه *

المستخلص

يهدف هذا البحث لدراسة الأحوال الاجتماعية لدولة المماليك. واتبع البحث المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي. وتأتى أهمية هذا البحث من أن مجتمع كل دولة يمثل مواطن القوة والضعف فيها ويقيس مدى وحدة المجتمع الدينية، والسياسية، والثقافية كما تأتى أهمية هذا البحث من أهمية دولة المماليك البحرية التي انتصرت على الصليبيين والتتر وأعادت الخلافة الإسلامية بعد أن سقطت على يد التتر. كذلك تناول البحث الأحوال الدينية، والاجتماعية في دولة المماليك، وتم تسليط الضوء على قيام دولة المماليك التي نشأت على أنقاض الدولة الأيوبية وعوامل قيامها. كما بين انقسام مجتمع الدولة المملوكية إلى طبقات: طبقة عليا وطبقة متوسطه وطبقة العامة التي عانت من الفقر. وتطرق البحث للطوائف الدينية الإسلامية في العصر المملوكي مثل المتصوفة كما وجد التشيع ومن أدعى المهدية. كما كان لأهل السنة نشاط ومحاربة لأهل البدع، وانتشر التعصب المذهبي والمذهب الأشعري. من أهم نتائج البحث أن مجتمع المماليك بدأ متماسكا متعاونا ومتكافلا بسبب إعادة وحدة المسلمين بإحياء الخلافة الإسلامية، فتوحد المجتمع ثم عاد إلى الانقسام فانتشرت البدع، وساد التعصب المذهبي، وانتشرت الفرق الدينية، وساد الصراع بين النصارى والمسلمين، مما اضعف الدولة، فمهد للمماليك الجراكسة أن يقضوا على دولة المماليك البحرية ويورثوها.

* جامعة الإمام المهدي كلية الآداب.

Abstract

This research aims to study the religious and social conditions of the Mamluk State, and to shed a light on the social life in the Maritime Mamluk State. The search followed the historical, descriptive and analytical method. The importance of this research comes from that the community of each state represents its strengths and weaknesses, and measures the religious, political, and cultural unity of the community. Also the importance of this research comes from the importance of the State of the Maritime Mamluks who defeated the Crusaders and the Tatars and returned the Islamic Caliphate that fell at the hands of the Tatars. The study discussed the religious and social status in the Mamluk State. It also highlighted the Mamluk State which arose on the ruins of the Ayyubi State and the factors that led to its establishment. The research explained the division of the society of the Mamluk state into layers: The top layer, the middle class and the floaters which has suffered from poverty. The research indicated to the Islamic religious communities in the Mamluk Era such as Sufis, Shiites, and who claimed the Mahdia. The fight against the people of fads was one of the most obvious Sunnis' Activities with a noticed expansion of the fanaticism and Ash'ari doctrine. Among the most important results of the research that the Mamluk society become cohesive, cooperative and interdependent due to the Reunification of Muslims through the revival of the Islamic Caliphate. The community become united, then returned to the division, the fads and religious groups spread, fanaticism prevailed, and there was a conflict between Christians and Muslims which has weakened the state and paved the way for the Circassian Mamluk to remove the Maritime Mamluk State and Inherited it.

مقدمة

يهدف هذا البحث الموسوم ب" ملامح الحياة **الاجتماعية في دولة المماليك** البحرية" إلى تسليط الضوء على الحياة الاجتماعية في دولة المماليك البحرية، واتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي، والوصفي، والتحليلي، وتأتى أهمية هذا البحث بأن مجتمع كل دولة يمثل مواطن القوى والضعف في هذه الدولة، ويقيس مدى وحدة المجتمع الدينية، والسياسية،والثقافية،كما تأتى أهمية هذا البحث من أهمية دولة المماليك البحرية التي انتصرت على الصليبيين والتتر، وإعادة الخلافة الإسلامية بعد أن سقطت على يد التتر.

نشأت دولة المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية وعوامل قيامها. ثم بيان طبقات المجتمع المملوكي، وأجناسه المختلفة وبيان عاداتهم في اللباس والأكل والشراب، والمآتم والأفراح، واحتفالهم بالأعياد والطوائف الدينية الإسلامية وغير الإسلامية.

إن الدولة الأيوبية هي الدولة التي قامت على أنقاضها دولة المماليك ومؤسس الدولة الأيوبية، هو صلاح الدين الأيوبي الذي كان أحد قواد نور الدين زنكي[١] وقصته في حكم مصر[٢] بدأت باستنجاد

(١) هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الاتابك ولد سنة٥١١هـ/ ١١١٨م، وكان شهما شجاعا ذا همة عالية، وديانة بينة، فلما قتل أبوه عماد الدين زنكي، صار الملك بحلب إليه، وأعطاه أخوه سيف الدين غازي الموصل، ثم افتتح دمشق،ومكث في الملك ثمان وعشرين سنة. توفي سنة٥٦٩هـ/ ١١٧٤م ابن كثير، إسماعيل:البداية والنهاية، دار التقوى، شبرا الخيمة،٢٠٠٤م، ج ١٢، ص ٣٤٣.

الخليفة الفاطمي العاضد[٣] بنور الدين زنكي،ضد الصليبيين ،فجهز نور الدين جيشا،بقيادة أسد الدين شيركوه بن شاذي، الذي كان أكبر أمرائه، وأخصهم عنده وذلك لشهامته وصرامته وجهاده ودعمه بابن أخيه صلاح الدين. فلما سمع الفرنج بذلك هربوا، فسر بذلك الخليفة العاضد فاستوزر أسد الدين ولكنه توفي بعد شهرين فخلفه صلاح الدين الذي استطاع أن ينفرد بحكم مصر بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد ثم ضم الشام بعد وفاة نور الدين،. وواصل الفتوحات التي بدأها نور الدين زنكي، فانتصر علي الصليبيين انتصارا عظيما، في سنة ٥٨٣هـ/ 1188م. واسترد بيت المقدس[٤]، بعد أن أحتلوه، أكثر من تسعين سنة،.، توفاه الله سنة ٥٨٩هـ/

(٢) مصرُ: سميت مصر بمصر بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفتحت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحموي، ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، در صابر،بيروت ١٩٥٥،ج ٤، ص ١١٢.

(٣) كانت وفاة العاضد صاحب مصر في سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م واسمه عبد الله ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن المستنصر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور القاهري، أبي الغنائم بن المهدي أولهم، كان مولد العاضد في سنة ٥٤٦هـ/1152م فعاش إحدى وعشرين سنة وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعيا خبيثا. ابن كثير:البداية والنهاية مصدر سبق ذكره،ج ١٢، ص ٣٢٨.

(٤) بيت المقدس مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل (*) مكان قصد في فلسطين، وبها مسجد ليس في الإسلام مسجداً أكبر منه، والبناء في زاوية من غربي المسجد يمتد على نحو نصف عرض المسجد، والباقي من المسجد فارغ ألا موضع الصخرة، فإن عليه حجراً مرتفعاً مثل الدكة، وفي وسط الحجر على الصخرة قبة عالية جداً. الأصطخري:المسالك والممالك، مطابع دار القلم،القاهرة،١٣٨١هـ ج ١، ص ٢٣.

1194م[٥] بعد وفاة صلاح الدين، انفرد كل واحد من أبنائه، وإخوانه، بحكم البلاد،التي كان واليا عليها.وأخذ كل واحد منهم، يتربص بالآخر؛ ليسقطه،فنشبت بينهم الفتن والحروب،حتى استقر الأمر، لأخيه الملك العادل[٦]، فاستطاع أن يبسط نفوذه، على مصر والشام ثم قسم البلاد بين أولاده، فلما توفي دب النزاع بين أولاده على الملك،فتحاربوا،مما أضعفهم؛ فطمع فيهم الأعداء،بل ببعضهم تحالف مع الصليبيين،ثم اخذوا يقتلون بعضهم بعضا، حتى انقض عليهم مماليكهم.[٧]

شهدت هذه الفترة بداية نهاية الدولة الأيوبية في مصر، حيث كانت وفاة الملك الصالح أيوب[٨] في سنة(٦٤٧هـ /١٢٥٠م)، حيث خلفه ابنه

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، مطبعة عيسى الحلبي، مصر، ١٩٧٥م،ج١، ص ٢٤٠، ٢٤١

(٦) هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبوبكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب أيوب بن شاذي.نشأ في خدمة نور الدين مع أبيه،وكان أخوه صلاح الدين يستشيره في الأمور لرأيه وعقله ثم تنقلت به الأحوال واستولى على الممالك خلف سبعة عشر ولدا، توفي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٩م. ابن العماد الحنبلي: شذرت الذهب في أخبار من ذهب،دار القدسي، القاهرة،، ج٧،ص ١٤٧.

(٧) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د.محمد مصطفى زيادة، ود.سعيد عبد الفتاح عاشور،دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٣، ج١، ص ٩٣، ٩٦، ١١٢.

(٨) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل ولد سنة ٦٠٣هـ/ بالقاهرة. دانت له الممالك كان عظيم الهيبة، وافر الحرمة،توفي سنة ٦٤٧/ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب، مصدر سبق ذكره، ج٧، ص ٤١١ . ٤١٢

"توران شاه"[٩] بعد أن مهدت لهً زوجة أبيه شجرة الدر[١٠]، ولكن سرعان ما تنكر لها فأرسل إليها مهددًا لها.[١١]

أخذت شجرة الدر تحرض المماليك البحرية،على توران شاة، وساعدها على ذلك أن توران شاه كان قد احتجب عنهم، وشعروا أنه ينوى الغدر بهم،فقرروا القضاء عليه،وهجموا عليه في البرج، حتى اضطر إلى الفرار، وألقى نفسه في ماء النيل، فمات غريقا جريحا، وبموته زالت الدولة الأيوبية في مصر ،بعد أن حكمت البلاد إحدى وثمانين سنة [١٢]

بعد مقتل توران شاه نادى كبار رجال الدولة بشجرة الدر سلطانة على مصر ،على أن الأحوال اضطربت على أثر توليتها السلطة، فإن

---

(٩)وهو الملك غياث الدين توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب،وبويع بعد أبيه وفرح الناس بكسر الفرنج علي يده هجموا عليه فهرب إلي البحر ولكنهم لحقوا به وقتلوه سنة٦٤٨هـ/

الكتبي، محمد بن شاكر:فوات الوفيات، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مكتبة لنهضة المصرية،١٩٥١م، ج١، ص ٢٦٣. ٢٦٤.

(١٠) هي شجرة الدر بنت عبد الله أم خليل التركية، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب وكان ولدها منه خليل مات صغيرا وكانت في خدمة زوجها لا تفارقه حضرا ولا سفرا من شدة محبته له، ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها توران شاه ثم تنازلت لعزالدين أيبك بعد أن تزوجها ثم تآمرت عليه حتى قتل ثم قتلها مماليكه سنة ٦٥٥هـ/ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سبق ذكره،ج 13 ، ص 199 .

(١١) ابن العبري،غريغوريوس الملطي٠(ت٦٨٥هـ تاريخ الزمان له،ترجمة الأب إسحاق، دار المشرق بيروت،١٩٨٦ص٣٩٤، ٢٩٥.

(١٢) أبو الفدا، إسماعيل بن على: المختصر في أخبار البشر، القاهرة،١٩٠٧،ج٤، ص٨١٣. ابن الوردي، عمر بن المظفر:تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ١٢٨٥هـ، ج٢، ص ١٨٢، ١٨٣

الخليفة العباسي أرسل إليهم رسالةً يقول فيها:" إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً " ولكن شجر الدر احتفظت بالعرش في بيتها بزواجها من الأمير عز الدين أيبك وتنازلت له عن الحكم. ولكن ما لبثت أن تآمرت عليه ؛لكونه أراد أن يتزوج عليها، فأعدت خمس من غلمانها الأشداء، عليه، فانقضوا عليه وقتلوه، فانقضى حكمه، الذي استمر بين عامي(٦٤٨ هـ/٦٥٥ هـ).(١٢٥٠م/ ١٢٥٧م[١٣].

انتقلت السلطة بعد مقتل أيبك إلى ابنه على، وعمره يومئذٍ إحدى عشر سنة،ولقب بالمنصور، وعين الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له.فبدأ السلطان عهده بالانتقام من شجرة الدر، فاعتقلها ثم قتلها[١٤].

استغل قطز صغر سن الملك المنصور، وأعلن أن الملك المنصور صغير السن، و لا يحسن تدبير الأمور، فقبض عليه عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وأعلن نفسه سلطانا على مصر، فكانت هذه البداية الفعلية لحكم المماليك[١٥].

(١) طبقات مجتمع دولة المماليك البحرية

(١٣) اليافعي أبو محمد عبد الله: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان،حيدر أباد الدكن،الهند، ١٣٣٨ هـ، ج٤، ص١٧ ١، ١١٨. الغساني: العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك،الملك الأشر ف الغساني، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار البيان، بغداد،١٩٧٥م، ج٢، ص٥٧٦.

(١٤) ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٦٣ م، القاهرة،ج٦،ص٧

(١٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء،القاهرة،مؤسسة الرسالة، ١٩٥٦ . ١٩٦٢ م ج٢٣، ص ١٣٩، ١٩٦.السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب : طبقات الشافعية الكبرى، مصر، ١٣٢٤هـ ج٨، ص١٣٤، ١٣٦.

إن غالب المجتمعات تنقسم إلى:طبقة عليا،و طبقة متوسطة، وطبقة دنيا، وقد يكون المجتمع من جنس واحد أو من أجناس مختلفة،ولكل مجتمع عادات في اللباس والمطعم والمأكل،والأفراح والأتراح،والفنون والملاهي وفي هذا المبحث نسلط الضوء على مجتمع دولة المماليك

أولا:. الطبقة العليا

فازت طبقة أهل الدولة . وهم سلاطين المماليك والأمراء وأتباعهم من جند المماليك، والوزراء والكتاب وأرباب السلطة. ورجال القضاء،. بكل شيئ وشاركهم التجار وأثرياء الناس،ولم يدعوا لغيرهم من سائر الناس سوى ما يتصدقون به عليهم، أو ما يكسبونه من عرق جبينهم. وتظهر في هذا المجتمع سمات الإقطاع العسكري فالحق كل الحق في خيرات البلاد للعسكر ولم يسمح للمصريين بتولي نيابة السلطنة أو قيادة الجيش أو الإمارة(١٦). ولقد جرت العادة أن يكثر السلاطين من شراء المماليك وقد يدفع بغضهم أثماناً باهظة وحرموا على عامة الناس التشبه بهم في شراء المماليك(١٧).

احتفظ سلاطين المماليك بالسلطة المطلقة،وإن شاوروا في بعض الأمور الفقهاء وعاشوا عيشة الترف فزخرفوا القصور بالذهب وكان بعض

(١٦) ابن تغري تردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافى، تحقيق د. نبيل محمد، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، ١٩٨٨ م، ج١٠، ص٣٠١.

(١٧) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك،دار الكتب المصرية،القاهرة،١٩٧٣، ج٢، ص٣١٣.

السلاطين يسرفون في ميلهم للنساء،كما كانوا يتخذون الغلمان الصباح من المماليك للخدمة والمتعة(١٨).

وتنعم المماليك باللباس وكان السلطان يرتدى في مواكبه قباء أحمر ويركب فرساً أصيلا،

والخز فوق رأسه، والأمراء مشاة بين يديه، والبسط تحت قدمي فرسه، والبشائر تضرب خلفه كان يحلو لبعض المماليك أن يحضروا الأوباش يلعبون بالمصارعة بين أيديهم وكان لبعض السلاطين كلاب للصيد لها مدربين(١٩).

كان الإسراف والبذخ طابع حياة المماليك خاصة في أفراحهم منها ما أنفق السلطان الناصر محمد في زفاف ابنته فقد نصب قماش غنت فيه ثماني مغنيات خص كل واحدة بخمسمائة دينار ومائة وخمسين تفصيلة حرير، وعشرون مغنية من جواري السلطان، ولم يحصر ما حصل لجواري السلطان والأمراء لكثرته، و شاعت الرشاوى خاصةً ممن كان يطمع في ولايةٍ أو كتابةٍ(٢٠).

كان السلطان يقيم وهو وأسرته ورجال بلاطه في قلعة الجبل، وكان القصر السلطاني منظماً تنظيماً دقيقاً فقد كان يحوى عدة بيوت :

---

(١٨) السبكى، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النغم، طبعة داود ولهلهم موهر،ليدن،١٩٠٨م، ص٥١،٦٢ ابن حجر،أحمد بن على: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،دار المعارف العثمانية،الهند،١٩٧٠م. ج٤، ص٣٥٤.

(١٩) ابن كثير، إسماعيل:البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٧٨،٢٤٤.

(٢٠) الشوكاني،محمد بن على، البدر الطالع، دار المعرفة،بيروت،١٩٨٣م. ج١، ص١٨٧. و ابن حجر:الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص٤.

منها ما يحفظ فيه جميع الحاجات اللازمة للمطبخ السلطاني: كاللحوم، والخضروات، والوقود،والزيوت.وكان يشرف على هذا البيت موظف كبير يشرف على المطبخ السلطاني وموظفيه، كما عهد إليه الإشراف على ما يحتاجه السلطان من الأدوية. وكان يساعده موظف يعرف باسم " المشرف" يتولى أمر المطبخ، ويشرف على طهي الطعام وإعداده. كما تولى احدهم شوى اللحوم للسلطان، وكان يقوم بذوق الطعام قبل تقديمه للسلطان موظف خاص وذلك خوفاً من أن يتمكن أحد من دس السم له في الطعام(٢١). ومنها ما يحفظ فيه أصناف السكر، والفاكهة،والشراب،والحلوى، والبلح، كما كانت تحفظ فيه أيضاً الأواني، التي تستخدم في تقديم ألوان الطعام للسلطان وزائريه، وكان يرأسه موظف يشرف على طائفة على الغلمان المكلفين بالخدمة فى تلك الدار(٢٢). ومنها ما كان يحفظ فيه جميع ما يخص السلطان، من:جواهر، وثياب، وسيوف،والمقاعد، والوسائد،.وكانت تعمل به طائفة لها خبره في ترتيب الأحمال على ظهور البغال.

للزينة في المواكب العظيمة(٢٣) ومنها من يحتوى على أنواع المفروشات من البسط والخيام، ويرأسه موظف يشرف على عددٍ من

(٢١) القلقشندى أبوالعباس، أحمد بن على:صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٦٣م ٤٨٢/١٤ ج٤، ص ٢١ وج ٥، ص٤٦. الخالدي: المقاصد الرفيع، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨، ١٢٨. ابن شاهين الظاهري،غرس الدين خليل،زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك،،نشرة بول رافس باريس،١٨٩٤، ص١١٥.

(٢٢) القلقشندي: صبح الأعشى،مصدر سبق ذكره، ج٣، ص٤٧٢ وج٤، ص٩) ١٠.

(٢٣) المصدر السابق، ج٤، ص١٠) ١١ وج ٥، ص ٤٦٩، ٤٧١ .

الغلمان، يعرفون باسم" الفراشين" عرفوا بالمهارة في نصب الخيام[٢٤] ومنها دار الضيوف كان ينزل فيها السفراء والعربان، كل حسب مكانته، ويقوم موظف "باستقبال السفراء والعربان الذين يفدون على السلطان،كما يوجد مكان خاص، تحفظ فيه الطبول والأبواق،وما يتبعها من آلات، تخص فرقة السلطان الموسيقية، وكانت تتكون من أربعة طبول، وأربعين من الكوسات، وأربع زمارات، وعشرين نقارة، وقد جرت العادة أن تدق مرةً، في كل ليلة بالقلعة، بعد صلاة المغرب،وتكون في صحبة السلطان، في الأسفار والحروب[٢٥].

خصصت مكان للإسطبلات السلطانية، تحفظ فيها السروج واللجم والكلابيش، وكان عدد الإسطبلات التابعة لها وفيراً: فمنها" إسطبل الخاص "الذي يضم الحيوانات التي تسير في المواكب، "وإسطبل البيمارستان" وتوضع به الخيول الضعيفة،" وإسطبل السباع" "وإسطبل الفيلة"، و"إسطبل البغال"، "وإسطبل البريد".وقد شغف الناصر محمد بشراء الخيول العربية الأصيلة، بذل في شرائها أموالاً ضخمة، وكان يشرف عليه موظف "ويليه في الرتبة موظف يتولى أمر علف الدواب[٢٦].

كان حال أمراء المماليك كحال السلاطين في الثراء والترف فلكل أمير إقطاع كبير من الأرض الزراعية، ويملك العقار الذي يدر عليه المال الوفير وبلغ بعضهم حداً من الثراء لا يصدق فمثلاً أحد الأمراء

(٢٤) المصدر السابق، ج٥، ص٤٧٠.المقريزي: المواعظ والاعتبار، القاهرة، ١٣٢٥هـ،ج٢،ص٤١٦.

(٢٥) القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٧٣ وج٤، ص٢٢.

(٢٦) والمقريزي: المواعظ والاعتبار، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص٢٢٤) ٢٢٥ .

كان يحمل إليه كل يوم ألف دينار، وقيل إنه دخل شونته في سنة خدمته ستمائة ألف أردب، ووجد في خزانته بعد حبسه مالا يحصى من المال والجواهر وفاخر الثياب وكان أحد الأمراء في عهد السلطان الناصر محمد له من الثروة الطائلة ما قارب السلطان نفسه، بل ربما فاقه وزاد عليه في أملاكه وإقطاعه فكان ذلك من أسباب مصادرته[٢٧] فقصورهم كانت تحاكى قصور السلاطين وكانت منتشرة في بيوت القاهرة، ودمشق، وحلب وغيرها من مدن الشام ومصر، وكان كل أمير يتخذ لوناً بعينه لطلاء داره وملحقاتها كما ينقش على داره، ولباسه، وفراشه،وسلاحه رمزاً أو إشارةً تسمى "الرنك" وقد يحمل هذا الرمز أسداً أو دواةً أو كأساً أو قلماً ويشير إلى رتبته أو صنعته وكانوا يبذلون الأموال الطائلة في مآدبهم ومنه ما يقال أن ما يذبحه في اليوم الواحد بلغ خمسين رأساً من الغنم وبلغ بهم الترف حداً أن عينوا للخدمة من أجل حمل نعال الأمير.وكانوا يركبون الخيول الفارهة. ومنهم من كان يملك ستمائة رأس من الخيل[٢٨] و تسلط أحد ولاة القاهرة في عهد السلطان الناصر محمد على العامة وسخروا الناس في أعمال البناء والجسور وشق الطرق والترع[٢٩].

اتخذ المماليك أعواناً لهم من أبناء مصر والشام وجعلوهم كتاباً ووزراء وقضاة وكانوا عوناً لهم على الشعب منهم: من غلب على جميع

(٢٧) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات،دار صادر،بيروت،دون، ج١، ص٣٧٣،٣٧٢. وابن حجر :الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره،ج٢، ص١٨١.

(٢٨)ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار القدسي،القاهرة، دون،ج٦، ص١٠٥.

(٢٩) المقريزي: السلوك، مصدر سبق ذكره،ج٢، ص٤٤٦.

مناصب البلد،.ومنهم من جمع بين ثلاث وظائف هامة:نظر الخاص السلطاني، والوزارة، ونظر الجيش وقد وجد عند بعضهم عند مصادرته أواني ذهب فضة ستة آلاف، وقماش مفصل على قدر بدنه ألفان وستمائة قطعة، وخمس وعشرون معصرة سكر، وألف من الخيل والبغال،ومائتا بستان،...وإلى غير ذلك. ومنهم من صودر بأمر السلطان حمل على الأقفاص مائة وثمانون قفصا وكان عدد الصناديق التي فيها أصناف العطر من: اللبان، والعود، والعنبر، والمسك،واحد وأربعين صندوقا(٣٠).

ثانيا: الطبقات الأخرى

تأتي بعد الطبقة الحاكمة طبقة أعيان الناس وكبار التجار،وكانوا يسكنون في قصور فاخرة، وجرت بين أيديهم الأموال، وكان المماليك يقترضون أحيانا من أولئك التجار،وأحياناً يصادرون أموالهم، وقد يشاركونهم في تجارتهم ومنهم الباعة متوسطي الحال من التجار، ويدخل في هؤلاء أصحاب الحرف أصحاب الصناعات الصغيرة،والعطارون، والكحالون ومنهم الوراقون الذين يبيعون الورق،والكتب ومنهم الجزارون ومنهم الفلاحون فقد كانت حالهم في انتعاش،ثم انتكسوا: لكثرة ما فرضت عليهم من ضرائب،ولشدة السنين، وتوالى المحن، وشح النيل،ولكن فيهم من عظمت ثروته،ومنهم جل الفقهاء،وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة، ونحوهم ومنهم أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن ومنهم جماعة من عامة الناس أشبه بالفقراء، وكانوا يحلقون الرءوس والحواجب،

(٣٠) القلقشندى: صبح الأعشى، مصدر سبق ذكره، ج١١ ، ص .

واللحى، ويأكلون الحشيشة، يقعد بعضهم على أبواب المساجد يشحذون من المصلين، ولا يدخلون للصلاة معهم(٣١).

(٢) العادات والتقاليد:

أولا: اللباس: كان للمصريين زى خاص، وطريقة في وضع العمامة وكان الشيوخ يلبسون الفرجية، أو القباء وعلى الرأس عمامة مدورة، أو مشقوقة وبعضهم يلبس في الصيف لباساً ابيض خفيفاً يسمى الشامي وفى الشتاء صوفًا أبيض يسمى الملطي(٣٢).

ثانيا: الطعام

كان للمصريين والشوام مطاعمهم ومشاربهم عادات الفاطميين في الأكل والشرب واشتهر من مآكل العامة بالقاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ والنيدة، وعرفت بالقاهرة ودمشق باعة المدمس وكان بعض الخاصة يستعمل الملاعق ومن مآكلهم حلوى القطايف بشراب التفاح ودهن اللوز(٣٣) وكانوا يقدمون في الأفراح شراب الليمون وشراب الحماض بقلب الفستق مع البندق ويصنعون من الشراب المخمر أنواعاً منها الأبيض المتخذ من القمح(٣٤).

---

(٣١) المقريزى: إغاثة الأمة، مصدر سبق ذكره،ص٧٥، السخاوى:معيد النعم،، مصدر سبق ذكر،ص١٣٦، ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص١١٢.

(٣٢) الشوكانى: البدر الطالع، مصدر سبق ذكره،ج١، ص٩٥ .

(٣٣) ابن حجر الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره،ج٣، ص٢٧٤.

(٦٩) القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سبق ذكره،ج٤، ص ١٢. المقريزي: المواعظ والاعتبار، مصدر سبق ذكره،ج١، ص ٢٢٤، ٢٢٥، ٣٣٧.

ثالثا: الأتراح:

من عاداتهم في المآتم:ندب الميت، وتقطيع الشعور،ولبس الحبل، وتحويل السرج

فى الركوب. وكانوا يقيمون المآتم يضربون فيها الدفوف، والدرابك، وكانت النسوة يطفن بالدرابك في شوارع القاهرة أياماً،وكانت نساء المماليك يصنعن على الموتى منهم نعياً، بالمغاني تعزف فيها الطارات سبعة أيام(٣٥).

رابعا: الأفراح والأعياد:

كانوا في أفراحهم يشعلون الشموع،وكانوا يهتمون بإقامة الأعياد الدينية،والقومية

وكان المولد النبوي من أهم الأعياد عند المسلمين، وكذلك اهتموا بموالد الأولياء كمولد السيد احمد البدوي بطنطا، ومولد الشيخ الأنبابي بإمبابة ويقول ابن تغري بردى " وصار هذا الوقت عندهم من جملة النزه، يتواعدون عليه من قبل عمله بأيام، ويتوجهون إليه أفواجا ويقول أنهم لا يقصدون زيارة الضريح فأكثرهم لا يعرف مكانه.(٣٦)

(٣٥) ابن إياس، زين الدين محمد بن أحمد،: بدائع الزهور،مطبعة عيسى الحلبي،مصر،١٩٧٥م.،ج٣ ج٢، ص٦٤.

(٣٦) ابن تغر بردى: النجوم الزاهرة، مصدر سبق ذكره،ج٣ ج٧، ص٩١١.

كانت للنصارى أعيادهم،منها عيد النيروز وهو في مصر أول يوم من السنة القبطية،وكانوا ينصبون لهذا العيد أميراً، وجماعة الزعر ويمتنع الناس عن الخروج إلى الأسواق وكل من ظفروا فيه بالأسواق يرشونه بالماء المتنجس، ويرجمونه بالبيض،وكان الناس في ذلك اليوم يتجاهرون بشرب الخمر ،وكثرة الفسق،ويحمل في ذلك اليوم القبط والمبشرين أصناف الفواكه: الرمان وعراجين الموز، والتفاح الشامي، والعنب، والتمر والبطيخ الصيفي،والخوخ، وقدور الهريسة المعمولة من لحوم الدجاج ومعها صحون الحلاوى القاهرية. ومن أعياد النصارى عيد الميلاد،فتباع فيه الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة،والتماثيل ومنها عيد الشهيد وفيه يجتمع نصارى مصر من سائر الجهات،وتركب النصارى الخيول ويمتلئ الجو بالخيام، والبحر بالمراكب المشحونة بالناس، وتتبرج زوانى سائر البلاد، ويباع الخمر[٣٧] وكان الاحتفال بوفاء النيل عظيماً،يشترك فيه السلطان وسائر الأمراء،والناس جميعاً فكان يبدأ بكسر الخليج،فيتوجه السلطان إلى المقياس فيكسر السد[٣٨]

(٣): العمران:

شهد عصر المماليك ضروباً من الفنون العمرانية وكانت القاهرة تموج بالقصور العلية

،والدور الضخمة،والمنازل الرحيبة، والأسواق الممتدة،والمناظر النزهة، والجوامع البهجة،والمدارس الرائقة، والخوانق الفاخرة،وغالب مبانيها من

(٣٧) المقريزي:المواعظ والاعتبار، مصدر سبق ذكره،ج٣ ج١، ص٢٦٩.

(٣٨) ابن إياس: بدائع الزهور،، مصدر سبق ذكره،ج٣ ج٢، ص١٢١.

الآجر، والمدارس والجوامع مبنية من الحجر،مفروشة الأرض بالرخام،واغلب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة،وكلها أو معظمها مبيضة الجدر بالكلس الناصع البياض، وبعض مساكنها تتكون من طابقين إلى أربع طبقات، بعضها على بعض، فى كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها(٣٩)

وبظاهر القاهرة البساتين الحسان،المطلة على النيل، والخلجان الممتدة منه،والغدران الممتدة من مقطعات النيل،وما حولها من الزروع المختلفة، وأزهارها التي تسر الناظر، وكان من أجمل عمائر القاهرة في دولة الممالك قصور المماليك بالقلعة، ومن أجملها القصر الذي بناه السلطان الناصر بن قلاوون واسمه" الأبلق ومن قصور القلعة الإيوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان أيام المواكب للخدمة العامة وإقامة العدل،"(٤٠).

ومن أعظم الجوامع وأحسنها جامع الخطبة وهو متسع الأرجاء مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام مبطن السقوف بالذهب في وسطه قبة مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة،وشبابيكه من حديد،ويتصدره سرير الملك. وعلى نسق قصور السلاطين كانت قصور الأمراء في هندسة العمارة، وقد ورث المماليك التصوير على الجدران، وعلى

(٣٩) القلقشندى: صبح الأعشى، مصدر سبق ذكره،ج٣، ص ٣٧١.

(٤٠) القلقشندي: صبح الأعشى، المصدر السابق:ج٣، ص، ٣٧١، ٣٧٤

صفحات الكتب، وكانت صورهم تحوى عناصر بشرية ونباتية وحيوانية، ولم يعبأ المماليك والعامة بأقوال العلماء في ذلك(٤١).

(٤) الموسيقى والغناء

ومن الموسيقيات في هذا العصر العوادة "خوبى" وكانت مغنية فائقة في ضرب العود وماتت سنة٧٤٠ هـ /١٣٩٣م(٤٢). ومنهن جارية تسمى "بياض"كانت تجيد الغناء فلما بلغ السلطان الناصر خبرها طلبها واختص بها(٤٣). ومن الرجال اشتهر بالموسيقى منهم ابن كر . ت٧٥٩ هـ/ كان يتكسب بالموسيقى ولقد غنى مرةً فاضحك، ثم غنى فأبكى، ثم غنى فنوم، ومر على قومٍ يغنون، فحرك بغلته حتى مشت على إيقاعهم(٤٤).

ومنهم " كتيلة "ابن قرانغان سمع به الناصر قلاوون فاستدعاه فبلغ عنده مكانةً عظيمةً فكان يلازم تعليم الجواري وكانت بينه وبين الكمال التوريزى منافسة في بلاط السلطان الناصر ابن قلاوون ومنهم ابن الفصيح عبد العزيز المغنى ت٧١٠ هـ/ ١٣١٠م .(٤٥).

(٤١) المصدر السبق، ج٣، ص ٣٧٤.

(٤٢) المصدر السابق،ج ١٠، ص١٩.

(٤٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سبق ذكره، ج١٠، ص٥٠.

(٤٤) نفس المصدر، ج١٠، ص٣٣٠.

(٤٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره،ج٣، ص٢٣٤.

ومنهم محمد بن على بن عمر المازني الدهان،ت٧٢١هـ/١٣٢١م،وكان شاعراً يعرف الأنغام بالموسيقى، وكان يلحن الشعر، ويتعاطى أحياناً أجراً على ما يلحن(٤٦).

(٥) أحوال المجتمع الدينية

أولا: العلاقة بين السلاطين ورجال الدين الإسلامي

انقسمت السلطة في مصر في عصر المماليك إلى سلطتين،شرعية مستمدة من الدين الإسلامي وزمنية مستمدة من قوانين وضعية،مستمدة من بعض الشرائع غير الإسلامية،وخاصة المغولية، فلقد أقتبس المماليك من قوانين جنكز خان "الياسه" ولقد احتفظوا بالسلطة الزمنية وتركوا السلطة الدينية للخليفة ومن يعاونه في تنفيذ أحكام الدين(٤٧).

كان منصب قاضى القضاة المنصب المهم الذي يلي الخلافة، ويختار من الشافعية، وتولى بعض القضاة مناصب إدارية كالوزارة إلى جانب القضاء ونظروا في الدواوين ولكن أكثرهم جمع بين القضاء والتدريس، أو القضاء والخطابة، وكان منصب الخطابة في العاصمة منصباً دينياً مهماً ويختار له من كبار العلماء أو القضاة كما عرف أيضاً منصب شيخ الشيوخ وهو شيخ شيوخ الصوفية في القاهرة ودمشق(٤٨).

---

(٤٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سبق ذكره،ج٩، ص٢٥٢. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات،، مصدر سبق ذكره،ج٢، ص٤٩٢. ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب، مصدر سبق ذكره،ج٦، ص٥٨.

(٤٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار، مصدر سبق ذكره، ج١، ص٢٢٠.

(٤٨) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سبق ذكره، ج٥، ص ٣٢٠،٣٢١.

وكان لرجال الدين غير الرسميين احترامهم من فقهاء وأشراف ولقد ميز الأشراف بلبس عمامةً خضراء فاختلف الناس من هذا التمييز بين مستهجن فقد قال الشاعر

جعلوا لأبناء الرسول علامةً * إن العلامة شأن من لم يشهر**

نور النبوة في كريم وجوهم***تغنى الشريف عن الطراز الأخضر(٤٩)

وقد استحسن بعضهم ذلك فقال:

عمائم الأشراف قد تميزت * بخضرة رفت وراقت منظرا**

وهذه إشارة أن لهم *** في جنة الخلد لباساً أخضرا(٥٠)

ظلت العلاقة بين رجال الدين والسلاطين بين شدٍ وجذب فلقد كان المماليك يعقدون مجلساً للشورى يضم العلماء للبت في الأمور الخطيرة،ومن ذلك التعبئة للتر، فقد جمع السلطان العلماء والقضاة للدعم المالي، فقال شيخ الإسلام العز بن عبد السلام للسلطان:" إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار ولكن بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء وقد روى السبكي بعض من أخبار هيبة هذا الشيخ فقد قال الظاهر بيبرس: لو أن هذا الشيخ قال للناس اخرجوا عليه لأخذ الملك منى (٥١).

ويعتقد المماليك أنهم بالعلماء يعرفون الدين،وفى بركتهم يعيشون،قال المقريزي: "وحسب أعظمهم قدراً أن يقبل يد الفقير والقاضي

(٤٩) المصدر السابق:، ج٦، ص٢٢٦.

(٥٠) ابن إياس:بدائع الزهور،، مصدر سبق ذكره،ص٢٢٧.

(٥١) ألسبكي: طبقات الشافعية،، مصدر سبق ذكره،ج٥، ص٨٤.

وكان السلطان لاجين يكرم ابن دقيق العيد وينزل له عن سريره عند لقائه ويقبل يده ولما استعفي القاضي ابن جماعة بمصر لكبر سنه رتب السلطان له كل شهر ألف درهم،وعشرة أرادب قمح"(٥٢).

لم يكن الوفاق دائماً بين السلطتين الزمنية والدينية،وروى التاريخ صوراً من النزاعات منها: ما حدث بين منكوتمر نائب السلطان وابن دقيق العيد حين أراده أن يحكم في ميراث دون بينة واضحة،فأصر على رأيه، فاستعفي من القضاء ولكن السلطان استدعاه واسترضاه(٥٣).

وربما حدث النزاع لرغبة بعض رجال الدين في تطبيق حدود الشرع على المماليك أنفسهم أو لمحاولة بعضهم تنفيذ الحدود خاصة الحنابلة ونشر هذا الاتجاه ابن تيمية فسجن بسبب ذلك أكثر من مرة ومات وهو في السجن(٥٤). وحدث نزاع آخر بين الفقهاء والسلطان الناصر محمد بسبب محاباته للنصارى وفق اتفاق عقد مع البابا في روما وإمبراطور بيزنطة وإمبراطور الحبشة فمنها ما حدث بين الفقيه البكري مع السلطان لما بلغه أن النصارى استعاروا من قناديل جامع عمرو بن العاص وعلقوه في مجمع كان بالكنيسة فأخذ معه طائفةً كبيرةً من الناس وهاجموا الكنيسة وشنع على كبار الأقباط ممن يتولون المناصب فعقد له السلطان له

(٥٢) ابن تغر بردى:النجوم الزاهرة، مصدر سبق ذكره،ج٨، ص١٠٨.المقريزي: السلوك، مصدر سبق ذكره،ج٣، ص٨٤. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره،ج٤، ص٩٤.

(٥٣) المقريزي: السلوك، مصدر سبق ذكره،ج١، ص٨٤٨.

(٥٤) نفس المصدر: نفس الصفحة

مجلساً فأغلظ على السلطان الناصر فلم يتمالك السلطان نفسه فهم بضربه بالسيف فامسك أمير طغاى بيده(٥٥).

حمل بعض الفقهاء لواء الخروج على السلاطين ففي سنة ٧١١هـ/١٣١٢م ضيق نائب السلطنة على الناس،وقرر على الأملاك أموالاً تؤخذ فى كل شهر، واجتمع القضاة والخطيب والعامة، وحملوا المصاحف،ووقفوا له بسوق الخيل، فأشار الحاجب بعصا ففر الناس،ثم رجمه البعض، فرجع النائب وأمر بإلقاء القبض على الخطيب جلال الدين القزوينى ليضربه

فشفع فيه فتركه، فنقل ذلك للناصر فأمر بإمساك النائب(٥٦).

ثانياً: التعصب المذهبي

كان التعصب المذهبي ظاهرة شائعة بين الناس وكان المذهب الشافعي غالباً على أهل مصر والشام،وتشدد الحنابلة وعلى رأسهم ابن تيميه في محاربة البدع والمنكرات فقد قطع ابن تيميه الصخرة النى كان يعتقد فيها أهل دمشق أن عليها قدم النبي لأنه رأى الناس يتبركون بها(٥٧).

وكان التحول من مذهب إلى آخر ظاهرة عادية للوصول إلى مطمع ومن أشهر من تحول عن مذهبه أثير الدين ابن حيان الذي تحول

(٥٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره،ج٣، ص٢٢٤.

(٥٦) ابن حجر: الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره ج٣، ص٢٣٦.

(٥٧) المقريزي:السلوك، مصدر سبق ذكره ج٢، ص٩.

عن المالكية إلى الشافعية وقد بلغ التعصب مبلغاً بحيث يمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض(٥٨).

وكان المذهب الأشعري في العقيدة هو السائد، ومن علماء الأشاعرة صفى الدين الهندي

،محمد بن عبد الرحيم الذي ولد بالهند . سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٧م(٥٩).
ومنهم الباجى علاء الدين أبو الحسن على بن عبد الرحمن الأندلسي ثم المصري الشافعي المذهب، الأشعري العقيدة،ت٧١٤هـ/١٣١٥م ولكن وجد من قاوم هذا المذهب منهم أحمد بن تيمية(ت (٧٢٨ هـ/(٦٠).

(٦) الطوائف الإسلامية

أولا:. المتصوفة

كان طبيعياً أن تتفق سياسة المماليك مع فلسفة الصوفية وهى في جملتها انصراف عن الدنيا حتى ينعم المماليك وحدهم بها من دون الناس.وكان من مهام الصوفية أن يدعوا للسلطان وأهله ليكشف عنهم الضر،ولما مرض الملك الصالح على بن المنصور قلاوون،استدعى الفقراء ليدعوا له، وبذل لهم الأموال،ولكنه توفى بالرغم من تأكيدهم أنه كتب له الشفاء(٦١).

(٥٨) السبكي: معيد النعم مصدر سبق ذكره، ص١٠٧.
(٥٩) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب مصدر سبق ذكره، ج٦، ص٣٧.
(٦٠) المصدر نفسه، ج٦ ص٧١٤.
(٦١) المقريزي:السلوك، مصدر سبق ذكره،ج١، ص٧٤٥.

اهتم سلاطين المماليك ببناء الخانقاه للصوفية،وجعل لكل خانقاه شيخ لها، يجتمع حوله الفقراء، يدربهم ويأخذ بهم في الطريق،وكانت عادة فقراء الصوفية حلق الرءوس،وتقصير لبسهم، ولبس الصوف(٦٢).

كان أهل التصوف ينشدون قصائد المديح،وعمد بعضهم إلى التكسب بهذا الإنشاد، يقصد دور الأغنياء والأمراء فى المواسم الدينية، والمناسبات الخاصة،وتمكنت في الناس عقيدة الكرامات لأولياء الصوفية(٦٣).

وكثر من بعض الناس ادعاء التصوف للعيش، ووصف الصفدي هيئة أحد رجال الصوفية فقال:"شيخ مسن فقير حرفوش، مكشوف الرأس منفوش الشعر، عليه دلق رقيق، بالى الخلقة رقيق، قد تمكن منه الوسخ، قد جمعه من عدة رقاع له مدفأة يستدفئ بنارها." وقال المقريزي عنهم ينتهجون منهج أهل الإباحة(٦٤).

وشاع عنهم الغناء والرقص على الآلات،فقال أحد الشعراء

متى سمع الناس في دينهم* بأن الغناء سنة تتبع**

وأن يأكل المرء أكل البعير*** ويرقص في الجمع حتى يقع

وقالوا سكرنا بحب الإله*** وما أسكر القوم إلا القصع

كذاك الحمير إذا أخصبت*** ينفر هاربها والشبع(٦٥).

(٦٢) السبكي: معيد النعم، مصدر سبق ذكره، ص٩٥.

(٦٣) ابن شاكر الكتبي:فوات الوفيات، مصدر سبق ذكره،ج١، ص١٨٤.

(٦٤) ألسبكي: معيد النعم، مصدر سبق ذكره،ص١٧٣.

(٦٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سبق ذكره،ج١، ص١٩.

وانتشرت شرب الحشيشة بين بعض الصوفية وكانت تسمى حشيشة حيدر التي تنسب إلى شيخ يسمى حيدر،،وقتل منهم في هذا العصر عثمان الدكاكى بدمشق لقوله بمذهب الاتحادية سنة ٧٢١هـ/١٣٢٢م وكذلك الباجريقى محمد بن عبد الرحمن بدمشق سنة ٧٢٤هـ /١٣٢٤م حكم عليه بالقتل لأنه كان يقول:"إن الرسل طولت على الأمم الطريق(٦٦).

لقد اشتهر عنه أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة بقوله" لا نبي بعدى" وكان لا يفرق بين الديانات وإذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم "كأنهم الحمير حول الدار وقد نقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال وجاور بعض الأوقات بغار حراء يرتجى أن يأتيه فيه الوحي بناء على ما يعتقده من أن النبوة مكتسبة وله أتباع وتصانيف منها كتاب "البدو" ونشرت له رسائل(٦٧).

ومن تلاميذ أبى العباس المرسى ياقوت بن عبد الله الحبشى الشاذلى، وكان من مشاهير الزهاد، توفى بالإسكندرية سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م(٦٨).

(٦٦)ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات،، مصدر سبق ذكره،ج٢، ص٤٤٥.

(٦٧) ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سبق ذكره،ج١٤، ص٢٦١، ج ١٣، ص ٢٦١. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سبق ذكره،ج٥، ص٣٣٠.، ٤٤٦.

(٦٨) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، مصدر سبق ذكره،ج٩، ص٧٣٢. المقريزي: السلوك، مصدر سبق ذكره،ج٢، ص٣٥٥.

ومنهم ابن عطاء الله السكندري أحمد بن محمد بن عبد الكريم، المالكي الصوفي وكان المتكلم بلسان الصوفية في زمانه، وله تصانيف عديدة في التصوف(٦٩).

ومنهم محمد بن وفاء الشاذلي المشهور بسيدي محمد وفاء وحصل له قبول عند أعيان الدولة وأنشأ قصائد على طريقة ابن الفارض وغيره من الاتحادية(٧٠).

اتخذ الصوفية الشعر وسيلةً للتعبير عن مواجدهم، واشتهر في القرنين السابع والثامن الهجري جماعة من كبار شعراء الصوفية، وعلى رأسهم ابن الفارض وابن عربي وتقي الدين السروجى وابن العفيف التلمساني وكتاكت المصري وابن الخيمي ومحمد بن اسرائل والزاهد الحريري وكان بعضهم ينظم الشعر موقعاً لينشد فى السماع وحلقات الرقص والذكر ومن أبرز المدائح النبوية في الشعر الصوفي "البردة" لشاعرها البوصيرى محمد بن سعيد بن حماد وتقع في ١٨٢ بيتاً،وفيها يشبه النفس بالطفل الرضيع

والنفس كالطفل إن تهمله شب على* حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم**

ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(٦٩) السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، مصر، ١٣٢٤هـ. ابن حجر:الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره،ج١، ص ٢٧٣. ابن تغري بردي:النجوم،الزاهرة، مصدر سبق ذكره،ج٨، ص٢٨٠.

(٧٠) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سبق ذكره، ج٦، ص٢٠٦، ابن حجر:الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره، ج٤، ص٢٧٩.

أكرم بخلق نبي زانه خلق ***بالحسن مشتمل بالبشر متسم

كالزهر في ترفٍ والبدر في شرفٍ ***والبحر فى كرمٍ والدهر فى هممِ

ثم يختم قصيدته:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ ***سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي*إذا الكريم تحلى باسم منتقم**

فإن من جودك الدنيا وضرتها ***ومن علومك علم اللوح والقلم(٧١).

ولاشك أن له مدح جميل ولكن بعضه يحمل مخالفات شرعية كقوله "ومن علومك علم اللوح والقلم"

ثانيا: الشيعة

وجد في العهد المملوكي الشيعة، واستوطن أكثرهم بصعيد مصر وجبال الشام واليمن،وقد قاموا بحركة في الصعيد سنة ٦٩٧هـ /١٢٩٨م(٧٢). واشتهر منهم جمال الدين المطهر الحلي . ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م وبلغت مصنفاته في الأصول، وفقه الإمامة والنحو والمنطق ١٢٠ مجلداً، ولابن تيميه عليه رد(٧٣). وبلغ نفوذ الشيعة في

(٧١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، مصدر سبق ذكره ج١، ص٨. ابن شاكر الكتبي: وفوات الوفيات، مصدر سبق ذكره ج٢، ص٣١٤. السبكي:معيد النعم، مصدر سبق ذكره ص١٢٣

(٧٢) الأدفوي،كمال الدين جعفر بن ثعلب، الطالع السعيد، تحقيق سعد محمد حسن،،الدار المصرية للتأليف والترجمة،القاهرة،١٩٦٦م ص٣٦٨.

(٧٣)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة مصدر سبق ذكره،ج٢، ص٢٧٩،

(٧٣) ابن الوردي،عمر بن مظفر، تتممة المختصر في أحوال البشر،القاهرة، ١٢٨٥هـ، ج٢، ص٢

الحجاز أن كان شريف مكة شيعياً، بل من الروافض، وكان يؤذن في الحرم "حي على خير العمل"، ومن الشيعة من اتخذ الاعتزال منهجا مثل محمد بن عدنان بن الحسن الشريف شيخ الأمامية بدمشق ت٧٢٢هـ/١٣٢٣م، وكان من أهل السنة من يميل إلى التشيع أمثال الصرصرى سليمان بن عبد القوى ت سنة (٧١هـ/٦٩٠م) وكان حنبلياً وقد اشتهر عنه الوقوع في بغض الصحابة وقيل أنه تاب(٧٤).

ثالثاً:ظهور من ادعى المهدية

ظهرت في هذا العصر بعض الدعوات الدينية المتطرفة في سنة ٧١٧هـ/١٣١٨م ظهر في الشام من أهل الجبل:" جبلة " وأدعى أنه المهدي، وخرج معه عدداً من النصيرية والجهلة وقال :"أنا محمد" ومرةً قال:" أنا على "" فسار إليه عسكر طرابلس فهزم (٧٥)

(٧) أهل الذمة

تمتعت الطوائف غير الإسلامية بالحرية الدينية،وبسطة العيش، فأقباط مصر كانوا يشغلون الوظائف الكبرى،ويلبسون أفخر الثياب، وكانوا يتمتعون ببعض الحرف التي أتقنوها: كالصيرفة، والصياغة، والطب، والصيدلة،وكان لليهود رئيس ديني(٧٦)، ولكن في سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١م تزايد عدد أهل الذمة، وتفننوا في ركوب الخيل،وولوا الأعمال الجليلة، فاتفق قدوم وزير ملك المغرب، يريد الحج، واجتمع بالسلطان والأمراء،وبينما هو تحت القلعة، إذ برجل راكب فرساً،وحوله عدة ناس،

(٧٤)ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سبق ذكره،ج٦، ص٣٦. ابن حجر: الدرر الكامنة، مصدر سبق ذكره،ج٢، ص١٥٥.

(٧٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سبق ذكره،ج٦، ص٢٣.

(٧٦) المقريزي: السلوك، مصدر سبق ذكره،ج١، ص٩٠٩، ٩١١.

مشاة في ركابه، يتضرعون إليه ويسألونه، ويقبلون رجليه، وهو معرض عنهم، بل ينهرهم، فقيل للمغربي إن هذا الراكب نصراني، فشق عليه ذلك فاجتمع بالأمير بيبرس وسلار، وقال لهم كيف ترجون النصر؟ والنصارى يذلون المسلمين، فأثر كلامه في نفوس الأمراء فاستقر الحال بمنع اليهود والنصارى من العمل في ديوان السلطان، أو دواوين الأمراء، وألا يركبوا خيلاً ولا بغالاً(٧٧). وكان ما أوغر صدور الناس في ذلك الوقت على النصارى، تشدد موظفي الحكومة من الأقباط على الرعية، وأخذهم المال بالباطل، ثم تظاهرهم بعد كل هذا بالإسلام وتعصبهم في الخفاء لدينهم(٧٨). وكان كريم الدين أحد كبار الأقباط، قد تحدى مشاعر المسلمين، فأدى ذلك إلى اندلاع الأحداث الدامية، سنة٧٢١هـ/١٣٢٢م، وشبت حرائق القاهرة، التي دبرها الأقباط، فبدأ المسلمون في تدمير الكنائس(٧٩).

وفى عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م اشتعلت في دمشق، فتنة بين المسلمين والنصارى، إذ أشعل النصارى النار بدمشق، في الدكاكين والمساجد(٨٠).

النتائج والخاتمة

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا البحث الموسوم ب"الأحوال الاجتماعية في دولة المماليك" وفيه بينت نشأة دولة المماليك البحرية،التي قامت على أنقاض الدولة الأيوبية،وبينت فيه طبقات المجتمع المملوكة،وعاداتهم الاجتماعية في اللباس والطعام، والاحتفال بالأعياد، وأحوالهم الدينية.

من أهم نتائج البحث:

---

(٧٧)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سبق ذكره، ج٨، ص١٣٤.

(٧٨) ابن الوردي،تتمة المختصر في أحوال البشر،ا ج٢، ص٢

(٧٩) المصدر السابق:ج٢، ص٢٧٢.

(٨٠) ابن كثير :البداية والنهاية، مصدر سبق ذكره،ج١٤، ص ١٨٦

- أن مجتمع المماليك بدأ متماسكا متعاونا،متكافلا،بسبب إعادة وحدة المسلمين بإحياء الخلافة الإسلامية، فتوحد المجتمع ثم عاد الانقسام إلى المجتمع فانتشرت البدع،وساد التعصب المذهبي، وانتشرت الفرق الدينية، وساد الصراع بين النصارى والمسلمين، مما اضعف الدولة،فمهد للمماليك الجراكسة أن يقضوا على دولة المماليك البحرية ويورثوها.
- انقسام مجتمع الدولة المملوكية إلى طبقات ، استأثرت الطبقة العليا بالملذات وأصابها الترف وطبقة متوسطه وطبقة العامة التي عانت من الفقر.
- تميز المصريون بلباس خاص وأختص العلماء بلبس الفرجية وكانت لهم ملابس للشتاء وملابس للصيف.ولهم أطعمتهم الخاصة من أشهرها: الدميس والصير، ومن الأشربة شراب الليمون. وكانوا يقيمون المآتم وتقطع النساء شعورهن عند النياحة، وكانت لهم أفراحهم في الزواج وفي أعيادهم حيث يحتفل المسلمون بعيد الفطر وعيد الأضحى وبميلاد النبي صلى الله عليه وسلم وميلاد الأولياء كميلاد أحمد البدوي ويحتفل النصارى بعيد الشهيد، وعيد النيروز، والميلاد فيفسدون بشرب الخمر وقذف الناس بالبيض الفاسد.
- من الطوائف الدينية الإسلامية في العصر المملوكي المتصوفة ومن أشهرهم ابن عطاء الله الإسكندراني، ومحمد وفاء الشاذلي.كما وجد التشيع في الصعيد واليمن والشام ومنهم من أدعى المهدية. كما كان لأهل السنة نشاط ومحاربة لأهل البدع وانتشر التعصب المذهبي و المذهب الأشعري في العقيدة ولم يكن الوفاق دائم بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية.

قائمة المصادر والمراجع:

(١)ابن العبري،غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ تاريخ الزمان له،ترجمة الأب إسحاق، دار المشرق بيروت،١٩٨٦ص٣٩٤، ٢٩٥.

(٢)ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في إخبار من ذهب، دار القدسي،القاهرة،دون،.

(٣)ابن الوردي، عمر بن المظفر:تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

(٤)ابن إياس،زين الدين محمد بن أحمد،: بدائع الزهور،مطبعة عيسى الحلبي،مصر،١٩٧٥م.

(٥)ابن تغري تردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق د. نبيل محمد، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، ١٩٨٨ م .

(٦)ابن حجر،أحمد بن على: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،دار المعارف العثمانية،الهند،١٩٧٠م.

(٧)ابن شاكر الكتبي:فوات الوفيات،دار صادر،بيروت،دون.

(٨)ابن شاهين الظاهرى،غرس الدين خليل: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك،نشرة بول رافس،باريس،١٨٩٤.

(٩) ابن كثير، إسماعيل:البداية والنهاية، دار التقوى، شبرا الخيمة،٢٠٠٤م.

(١٠)أبو الفداء إسماعيل بن على: المختصر في أخبار البشر، القاهرة،١٩٠٧.

(١١) أدفوي، كمال الدين جعفر بن ثعلب،الطالع السعيد، تحقيق سعد محمد حسن – الدار المصرية للتأليف والترجمة،القاهرة،١٩٦٦م.

(١٢)الأصطخري:المسالك والممالك،مطابع دار القلم،القاهرة،١٣٨١هـ.

(١٣)الحموي، ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، در صابر،بيروت ١٩٥٥.

(١٤)الذهبي: سير أعلام النبلاء،القاهرة،مؤسسة الرسالة، ١٩٥٦ . ١٩٦٢ م.

(١٥)السبكى،تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النغم، طبعة داود ولهلهم موهر،ليدن،١٩٠٨م.

(١٦) السبكي،تاج الدين أبو النصرعبد الوهاب،طبقات الشافعية الكبرى، مصر، ١٣٢٤هـ.

(١٧) الشوكاني، محمد بن على، البدر الطالع، دار المعرفة،بيروت،١٩٨٣م.

(١٨) العبادي، احمد المختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، النهضة العربية، بيروت،١٩٦٩.

(١٩)الغساني: العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك،الملك الأشر ف الغساني، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار البيان، بغداد،١٩٧٥م

(٢٠)القلقشندى أبو العباس، أحمد بن على:صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٦٣م.

(٢١)المقريزي،أحمد بن على: السلوك لمعرفة دول الملوك،دار الكتب المصرية،القاهرة،١٩٧٣، ج٢، ص٣١٣.

(٢٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار،القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

(٢٣) المقريزي،أحمد بن على،إغاثة الأمة بكشف الغمة،المكتبة الثقافية،مصر،٢٠٠٠م،

(٢٤)اليافعي أبو محمد عبد الله: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان،حيدر أباد الدكن،الهند، ١٣٣٨ هـ.